

السفراء والدبلوماسية في الدولة العثمانية

خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

Ambassadors and Diplomacy in the Ottoman Empire during the

Eighteenth and Nineteenth Centuries

1- زكرياء الهكار، ماجستير التاريخ. معهد الدوحة للدراسات العليا (قطر)

zelhagar@lu.edu.qa

تاريخ الاستلام: 2022 /05/23 تاريخ القبول: 2022 /06/10 تاريخ النشر: 2022 /06/15

ملخص: خلال القرن الثامن عشر بدأت الدولة العثمانية تعاني من انحدار على مختلف المستويات، و باتت تعرف قضيتها في الأوساط السياسية الغربية بالمسألة الشرقية أو مسألة الرجل المريض، فكان لزاما حينها على سلاطين الدولة ورجالها، العمل من أجل اللحاق بالركب الحضاري، والحفاظ على أملاك الدولة المترامية الأطراف، بل والحفاظ على نفسها كدولة مستقلة وذات سيادة، بعدما أصبحت تعتمد على الوساطات الأوروبية من أجل حل مشاكلها.

لقد وعت النخبة السياسية في الدولة العثمانية بعد الاصطدام بالرأسماليات التوسعية والتنافسية أهمية الإصلاح كوسيلة للبقاء، وقد جاء هذا الوعي في القرن الثامن عشر، حيث باشر رجال الدولة العمل على هذه الإصلاحات التي شملت كل المجالات السياسية، الإدارية والعسكرية، على المستوى الداخلي، والإصلاحات الدبلوماسية على المستوى الخارجي. من هذا المنطلق، جاءت هذه الورقة لمحاولة فهم التطور الذي عرفته الدبلوماسية العثمانية عبر قرنين من الزمن، وهي الفترة التي شكلت بداية الانهيار البطيء للدولة، محولين بذلك الإجابة على التساؤلات الإشكالية التالية:

كيف نشأت الدبلوماسية العثمانية ؟ وماهي مراحل تطورها؟ وكيف كانت نتائج اعتمادها؟

كلمات مفتاحية: الإصلاح. السفراء. الدولة العثمانية

*- المؤلف المرسل

Abstract:

The eighteenth century carried the winds of change and European supremacy over the Ottoman Empire, whose cause in Western political circles became known as the Eastern issue.

The political elite in the Ottoman Empire, after colliding with expansionist and competitive capitalism, realized the importance of reform as a means of survival.

From this point of view, this paper came to try to understand the development of Ottoman diplomacy over two centuries, trying to answer the following problematic questions:

How did the Ottoman diplomacy arise? What are the stages of its development? And what were the results of its adoption?

Keywords: Ottoman Empire; development; Eastern issue;

● مقدمة

حمل القرن الثامن عشر رياح التغيير والتفوق الأوروبي على الدولة العثمانية، التي باتت تعرف قضيتها في الأوساط السياسية الغربية بالمسألة الشرقية أو مسألة الرجل المريض، فكان لزاما حينها على سلاطين الدولة ورجالها، العمل من أجل اللحاق بالركب الحضاري والحفاظ على أملاك الدولة المترامية الأطراف، بل والحفاظ على نفسها كدولة مستقلة وذات سيادة، بعدما أصبحت تعتمد على الوساطات الأوروبية من أجل حل مشاكلها.

لقد وعت النخبة السياسية في الدولة العثمانية بعد الاصطدام بالرأسماليات التوسعية والتنافسية، بأهمية الإصلاح كوسيلة للبقاء، وقد جاء هذا الوعي في القرن الثامن عشر إذ باشر رجال الدولة العمل على هذه الإصلاحات التي شملت كل المجالات السياسية، الإدارية والعسكرية، على المستوى الداخلي، والإصلاحات الدبلوماسية على المستوى الخارجي.

من هذا المنطلق، جاءت هذه الورقة لمحاولة فهم التطور الذي عرفته الدبلوماسية العثمانية عبر قرنين من الزمن، وهي الفترة التي شكلت بداية الانهيار البطيء للدولة، محاولين بذلك الإجابة على التساؤلات الإشكالية التالية:

كيف نشأت الدبلوماسية العثمانية؟ وماهي مراحل تطورها؟ وكيف كانت نتائج اعتمادها؟

كمحاولة للإجابة على هذه التساؤلات، تم تقسيم هذه الورقة البحثية لقسمين، ففي القسم الأول تناولت الحديث عن المحاولات الأولى للإصلاح الدبلوماسي خلال القرن الثامن عشر، أما القسم الثاني فقد خصصته للحديث عن التطورات التي عرفتھا الدبلوماسية العثمانية خلال القرن التاسع عشر والعلاقات الخارجية للدولة.

1. العهد الأول للإصلاحات الدبلوماسية خلال القرن الثامن عشر

1. السلطان سليم الثالث رائد الإصلاح الدبلوماسي

أعطى السلطان عبد الحميد الأول، الانطلاقة الفعلية لعصر الإصلاحات العثمانية، غير أن إصلاحاته اهتمت أكثر بالجانب العسكري، إذ عمل على تحديث الجيش، وإنشاء بحرية ومدفعية جديدة، بالإضافة إلى اهتمامه بالجانب الاقتصادي¹، في حين أن الدبلوماسية خلال فترته والفتريات السابقة له، كانت تحكمها في الغالب مبادئ الدين الإسلامي، بحيث تقيدوا بمبدأ دار الحرب ودار الصلح، فقد كانت علاقاتهم الخارجية توضع بأقلام الفقهاء والمفتين، إضافة إلى أن المعاملة بالمثل كانت من أهم مبادئهم الدبلوماسية، لاسيما أن دبلوماسيتهم قبل الفترة موضوع الدراسة اقتصر على مفاوضات استثنائية² بمعنى أن النشاط الدبلوماسي لم يكن فاعلا بشكل كبير.

كانت العلاقات العثمانية مع الدول الأخرى تتم عن طريق ما عرف بالبعثات السفارية أو السفراء فوق العادة، فكان السفير العثماني يرجع مباشرة بعد انتهاء المهمة التي أرسل لها، وكان في الغالب يعد تقريراً يعرف "بالسفرنامه"، بحيث يضمن لها وصفاً دقيقاً لكل مل شاهده، من استقبله إلى حين مغادرته³.

لقد عرفت الدبلوماسية العثمانية طفرتان على مستوى التنظيم خلال هذه الفترة، فالأولى ارتبطت بمعاهدة قارولفجه سنة 1699 إذ باتت الدولة العثمانية بعدها غير قادرة على صياغة سياستها الخارجية بمعزل عن الدول الأوروبية، وهو ما أدى بها إلى الاتصال بشكل مكثف مع

¹ روبير مونتان، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: بشير السباعي، القاهرة: دار الفكر، الجزء الثاني، 1992، ص 9.

² نفسه، ص 151

³ ثريا فاروقي، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، ترجمة: حاتم الطحاوي، بيروت: دار المدار الإسلامي، 2008، ص 305.

عواصمها عبر إرسال السفراء لفترات أطول ، كما طلب منهم تسجيل مشاهداتهم في المجالات العسكرية والسياسية ووضع ذلك في تقارير¹، والطفرة الثانية التي شهدتها الدبلوماسية العثمانية هي سنة 1793، وهي السنة التي قام فيها السلطان سليم الثالث بإرسال سفراء دائمين إلى العواصم الأوروبية الرئيسية، إضافة إلى تغييره لنمط التنظيم الدبلوماسي العثماني².

إن الأزمات التي عاشتها الدولة العثمانية خلال بداية القرن الثامن عشر، سرعت ببروز التيار الإصلاحية داخل أروقة البلاط، فبرز بذلك اسم السلطان سليم الثالث*، والذي منذ أن كان أميراً اقتنع بضرورة الإصلاح والتحديث وهو ما جعله يحيط نفسه بمجموعة من الرجال الذين سايروه في الطرح الإصلاحي، أمثال راتب أفندي وكوجك حسين باشا³، وفي سنة 1789 اعتلى هذا السلطان الشاب عرش الدولة العثمانية، وكانت خطوته الأولى في تفعيل مسلسل طويل من الإصلاحات، هو مطالبته لبعض المحيطين به بكتابة أفكارهم ومقترحاتهم حول الإصلاح، فيما عرف بنظام "اللوائح" (لايحه) وهي الأفكار التي همت جميع المجالات وقد لاقت تجاوباً من السلطان⁴، ومن أوجه هذا التجاوب هو ما قام به من تجديد في النظام الدبلوماسي للدولة العثمانية، فقد كانت العلاقات الدولية تنظم إلى هذه الفترة من طرف سفراء أوروبيين مقيمين في استانبول في حين أن العثمانيين لم يعرفوا قبل سليم الثالث نظام السفارات العثمانية الدائمة والتي أطلقها سنة 1793، لتنتقل بذلك الدبلوماسية العثمانية من النظام التقليدي المبني على التفسير الديني للعلاقات لدولية، إلى المرحلة الحديثة التي تحكم مبدئ المصالح

¹ أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة: صالح سعداوي، القاهرة: مكتبة الشروق، 2010، ص 236.

² نفسه، ص 237.

³ عبد الرحيم بنحادة، العثمانيون المؤسسات والاقتصاد والثقافة، الدار البيضاء: اتصالات سبو، 2008، ص 295.

* ولد السلطان سليم الثالث سنة 1761، وهو السلطان الثامن والعشرون للدولة العثمانية، عرفت قوته بتبني نظام الإصلاح والتحديث في الدولة، أتاح الانكشارية بحكمه بعدما ألبيها ضده القوى المناهضة للإصلاح، (للمزيد انظر، نفسه، ص 295-296).

⁴ أكمل الدين، مرجع سابق، ص 78.

المتبادلة. والقطع مع ما يصفه المؤرخ التركي كازال بالدبلوماسية السلبية العثمانية¹، وبذلك فقد كانت هذه القطيعة مرحلة جديدة من التنظيم الدبلوماسي التي بدأها السلطان سليم الثالث، من أجل ضمان تواصل مباشر مع العواصم الأوروبية المهمة، فقد أرسل سفارات دائمة لها مثل لندن سنة 1793، وباريس وفيينا وبرلين سنة 1797.²

تجدر الإشارة إلى أن هذه الخطوة التي قام بها السلطان سليم الثالث، بالإضافة إلى كونها نابعة عن رغبة في الإصلاح والتحديث، فقد اعتبرت أيضا ضرورة ملحة من أجل الحفاظ إما على تأييد بعض الدول الأوروبية، أو مراقبتها من أجل السير على خطاها الإصلاحية.

على الرغم من تأخر العمل بالسفارات الدائمة في الدولة العثمانية مقارنة مع العالم الأوروبي، فقد عانت في بداية الأمر من مجموعة من الصعوبات، والتي كان أهمها هو عدم إجادة السفراء العثمانيين للغات، وهذا ما كان يمنعهم من الدخول في مفاوضات مباشرة مع الدول المقيمين فيها، وبالتالي حتمت هذه الوضعية ضرورة الاستعانة بالمرجمين الذين كان يطرح استخدامهم عددا من المشاكل، فقد استعانت الدولة العثمانية بالمرجمين غير المسلمين التابعين لها والذين لم يتوفروا في الغالب على القدرة المطلوبة في إجادة اللغات والاحاطة بالثقافة الأوروبية، وهذا ما كان يحول دون تمكنهم من متابعة الأحداث والتطورات في أوروبا، وهو ما كان يتسبب أحيانا بالوقوع في بعض الفضائح والأخطاء³، إضافة لذلك شكل الجهل بالطريقة التي يرسل بها السفراء وطرق إقامتهم عائقا أوليا استطاع العثمانيون تجاوزه عن طريق الاستعانة بخبرات السفير الإنجليزي، على اعتبار أن إنجلترا خلال هذه الفترة كانت تعيش

¹ أنينل ألكسندروفنادولينا، الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية في ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر، ترجمة: أنور محمد إبراهيم، (مصر: المجلس الأعلى للثقافة، 1999)، ص

55.

² أكمل الدين، ص 82.

³ أكمل الدين، مرجع سابق، ص 238.

في سلام مع الدولة العثمانية كما كانت تنعم بمرحلة استقرار، على عكس فرنسا التي كانت لم تتخلص من مخلفات الثورة¹.

زيادة على المشاكل التي طرحها المترجمون، نجد أن السفراء أنفسهم كانوا غير قادرين على ممارسة مهامهم مباشرة، فلم يكونوا على دراية بالبروتوكولات المفروضة على السفراء الأوروبيين، لهذا كانت الاستعانة بالسفير الإنجليزي ضرورة ملحة حتى من أجل معرفة كافة التفاصيل، انطلاقا من التنبيه إلى أهمية وضرة السفارة الدائمة، والطرق التي يتم بها تعيين السفير، وصولا إلى رتب السفيرة والمصاريف التي تطلبها إرسال سفارة².

لقد كان من البديهي في البداية ألا تستطيع هذه السفارات ضمان السير العادي لمهامها، بسبب كافة المشاكل التي أشرنا إليها سابقا، غير أن هذا الوضع سرعان ما تغير لاسيما بعد تمكن مجموعة من الأطر الشابة من الاطلاع بشكل كبير على الغرب والتمكن من لغته والاندماج في مجتمعاته³.

لقد تعرضت هذه التجربة الفتية التي انخرط فيها السلطان سليم الثالث مع رجال دولته، إلى الهدم على يد التيار الأصولي داخل أروقة الحكم العثماني، والذي لم يتقبل الإصلاحات التي أقدم عليها السلطان، وهو ما سرع من عزله وتنصيب السلطان مصطفى الرابع مكانه سنة 1807، وبالإضافة إلى وقف العمل بنظام السفارات الدائمة، فقد تم إلغاء كافة الإصلاحات الإدارية والعسكرية، بحيث كان من نتائج هذه القرارات هو إعادة خلق فجوة في العلاقات العثمانية الأوروبية، وبالتالي العودة لما يمكن أن نسميه بقطيعة مؤقتة للعلاقات الكثيفة مع العالم الأوروبي.

نظر بعض الباحثين إلى نظام السفارات الدائمة الذي أنشأه سليم الثالث، بأنه لم يحقق أي نجاح ، مرجعين ذلك إلى عدم استناده على تنظيم مركزي قوي، والقصد بذلك عدم إرفاق

¹ نفسه، ص 237.

² نفسه، ص 238.

³ نفسه، ص 234.

الإصلاح بتأسيس جهة تتحكم فيه بطريقة مباشرة كنظارة الأمور الخارجية¹، غير أن هذا الطرح لا يستند في نظرنا إلا على وجهة نظر ضيقة، فالسفارات التي أنشأها سليم الثالث ساهمت بشكل مباشر في تكوين نخبة من السفراء و الدبلوماسيين -الذين سنأتي على ذكر أدوارهم الحاسمة في الفصل الثاني من الورقة-، إضافة إلى أنها عززت من قدرة الدبلوماسية الناشئة على المرونة في التعامل مع المتغيرات الدولية.

2. الأطراف الفاعلة في الدبلوماسية العثمانية خلال فترة الدراسة

لقد اختلف الفاعلون في الدبلوماسية العثمانية خلال القرن الثامن عشر باختلاف مراحل هذه الفترة، إذ انتقلت من دبلوماسية تحقق مهمات بعينها أو تبعث من أجل عقد اتفاقيات أو تسوية نزاعات، إلى دبلوماسية السفراء الدائمين الذين يقعون على العلاقات الرابطة بين الدولة العثمانية والأوروبيين في جل الظروف، فالمرحلة الأولى عرفت انتشار السفراء المؤقتين أو السفراء فوق العادة، وهم الذين كانوا يبعثون للتباحث في أمر معين، بالإضافة إلى أنهم كانوا يحافظون على العلاقات الودية بين كافة الدول، إذ من خلالهم كان يتم تبادل الهدايا بين السلاطين العثمانيين وباقي حكام الدول التي تربطها بها علاقات إما سياسية أو تجارية أو حتى التبعية الغير مباشرة وهو ما تجسده الحالة المغربية في بعض فترات².

إضافة للسفراء الذين شكلوا الحجر الأساس في العملية الدبلوماسية، نجد المترجمين الذين أسهموا في الربط بين الدبلوماسيين العثمانيين والأوروبيين، فقد كان دورهم حاسما في هذا الصدد، لاسيما أن السفراء العثمانيين الأوائل لم تكن لهم دراية باللغات، وهذا ما فرض ضرورة الاستعانة بالمترجمين.

لقد استخدم العثمانيون المترجمين الأجانب Dragoman، بحيث كان أغلبهم ينحدرون من الجالية اليونانية، على اعتبار أن هؤلاء كانوا يتقنون اللغات يحكم نشاطاتهم التجارية الواسعة

¹ أنينيل ألكسندروفنادوليا، مرجع سابق، ص 51.

² أكمل الدين، مرجع سابق، ص 234.

في كل من البحر المتوسط والبحر الأسود والمحيطين الأطلسي والهندي¹، غير أن بعض المصادر تشير إلى الدولة العثمانية بدأت تشك بولاء المترجمين اليونانيين لاسيما في الفترات التي كانت تشق فيها اليونان عصا الطاعة للعثمانيين، بالتالي كان من الطبيعي الاستغناء عن خدماتهم وتجنب الاشتغال معهم، خاصة الذين كانوا يشغلون مناصب حساسة، لهذا عمد العثمانيون على لاستعانة بالمترجمين الأرمن في المراحل الأولى من هذه الأزمة، ليأسسوا بعدها دائرة الترجمة من أجل العمل على تكوين مترجمين أتراك أو حتى من غير الأتراك الذين يضمن ولائهم، وقد كان العمل الأساسي في هذه الدائرة هو نقل اللغات الأوروبية إلى اللغة التركية، ليتحول عملها فيما بعد دورها إلى تكوين موظفين كبار في أسلاك الدبلوماسية العثمانية².

نجد أيضا الديوان الهامبوني* والذي اعتبر أيضا من الأجهزة السياسية التي كانت تصيغ القرارات الدبلوماسية وتتولى مناقشتها، كما كان هذا الديوان مخولا لإصدار قرارات تهم إرسال السفراء وتحديد أهداف سفارتهم، فضلا عن توليه أمر كافة السفراء القادمين من الدول الأوروبية للدولة العثمانية، غير أن هذا الجهاز فقد أهميته أواخر القرن السابع عشر، إذ باتت مجالس الشورى هي المخولة لتدارس كافة القضايا المهمة في الدولة وعلى رأسها

¹ دونالد كواترت، الدولة العثمانية 1700-1922، تعريب: أيمن الأرماني، الرياض: مكتبة العبيكان، 2004، ص 157.

*الديوان الهامبوني هو مجلس كان من أعلى السلطات في النظام البيروقراطي في الدولة العثمانية، عرف تطورات مختلفة في مهامه وصلاحياته على اختلاف السلاطين الذين تعاقبوا على حكم الدولة العثمانية، وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر بدأ الديوان الهامبوني يفقد أهميته وسلطته، غير أنه حافظ على استمراريته بصورة رمزية حتى نهاية الدولة العثمانية. (انظر، أكمل الدين، مرجع سابق، ص 171-172).

**حكم السلطان محمود الثاني ما بين 1808 و1839، تمكن خلال ولايته من القضاء على الانكشارية وإحداث أنظمة صحية، وتبني إصلاحات إدارية وعسكرية ليذهب في ذلك مذهب سلفه السلطان سليم الثالث. (انظر، عبد الرحيم بنحادة، مرجع سابق، ص 300-301).

² نفسه، ص 157.

القضايا الخارجية، وقد استمر استصدار القرارات الكبرى من طرف هذه المجالس لحدود ظهور النظارات، وخاصة نظارة الأمور الخارجية¹

II. الدبلوماسية العثمانية والعلاقات الخارجية خلال القرن التاسع عشر

1. الدبلوماسية العثمانية في القرن التاسع عشر

لقد عمل السلطان محمود الثاني* على إحداث ثورة حقيقية تستند إلى وعي بضرورة تطوير أنظمة الدولة أمام تنامي المد القومي، خاصة في اليونان وفي مراحل لا حقة في منطقة البلقان، غير أن سنة 1816 عرفت هدوء نسبي حاول السلطان استغلاله من أجل العمل على حركة الإصلاح والتي لامست الجهاز الدبلوماسي بشكل كبير² إذ عمل على تأسيس أول جهاز سياسي يعنى بالأمور الخارجية للدولة العثمانية وهي " نظارة الأمور الخارجية" في سنة 1836³، والتي أسندت رئاستها إلى رئيس الكتاب والذي كان ضمن ثلاثة مساعدين للوزير الأعظم، واعتبر أيضا كبير المستشارين في القضايا الدولية⁴، ويفيد موقع وزارة الخارجية التركية اليوم من خلال الأرشيف أن يوز غاتلي عاكف أفندي هو أول من تقلد هذا المنصب⁵.

فقبل تاريخ تأسيس النظارة لم يكن لدى حكومة السلطان موظفون متخصصون في الشؤون الخارجية، وكان ذلك ناتج عن رفض القوى الأصولية العمل بنظام السفراء الدائمين الذي جاء به سليم الثالث، بالتالي ولسد الثغرة الدبلوماسية في الدولة العثمانية، عمد محود الثاني لتأسيس هذه الوزارة وإعادة العمل بنظام السفراء المقيمين، ويرى بعض الباحثين أن تكوين

¹ أكمل الدين، مرجع سابق، ص 232.

² محمد عبد اللطيف البحراوي، حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني،

القاهرة: دار التراث، 1996، ص 412

³ عبد الرحيم بنحادة، مرجع سابق، ص 323.

⁴ أنينيل ألكسندر فنادوليا، مرجع سابق، ص 51.

⁵ "نبذة عن وزارة خارجية الجمهورية التركية"، (أخر تحديث: 2018-05-09)،

<http://www.mfa.gov.tr/نبذة-عن-وزارة-خارجية-الجمهورية-التركية.mfa.ar>

وزارة الخارجية جاء كإشارة إلى أن الدبلوماسية العثمانية تشكلت بطابعها الحديث باعتبارها مؤسسة مستقلة داخل الحكومة¹، ومن جهة أخرى فقد كان تأسيس نظارة الأمور الخارجية تمهيدا لاعتماد سفراء دائمين في العواصم الأوروبية في فترة تعرضت فيها العاصمة العثمانية لخطر الاحتلال من قبل الروس سنة 1829، وكذلك من طرف قوات محمد باشا سنة 1833، بالتالي يذهب صاحب هذا الرأي في نظرنا إلى محاولة تفسير اهتمام محمود الثاني بالدبلوماسية العثمانية، بإرجاعه لضرورة ملحة فرضتها طبيعة الظروف المحيطة والمؤثرة على استقرار الدولة².

إن هذه الظروف (المتريدة) التي كانت تعيشها الدولة -على الأقل خارجيا- عززت من ارتفاع مساعيها الدبلوماسية والتي أسهمت في إنقاذ الدولة من محنتها³، وهذا ما تجسد في تزايد جراح الحركات الاستقلالية في البلقان لاسيما بعدما أعلنت اليونان استقلالها عن الدولة العثمانية سنة 1821⁴.

لقد أدخل السلطان محمود الثاني الدبلوماسية العثمانية ضمن مصاف الدبلوماسيات الأوروبية، غير أن الأوضاع السلبية التي تراكمت على الدولة العثمانية خلال هذه الفترة، أجبرت الدبلوماسية العثمانية على ضرورة الانحيل لإحدى الدول القوية، مثل إنجلترا في البداية وفرنسا في مراحل لاحقة، فأصبحت بذلك سياسة العثمانيين تصاغ عن طريق اتباع التوجهات الأوروبية⁵.

لقد مثل القرن التاسع عشر عهد الدبلوماسية العثمانية، خاصة بعد دخول الدولة في أزمة ما عرف بمسألة الرجل المريض" وتعاضم المشاكل الخارجية، بالتالي كان الاهتمام بتكوين موظفين

¹ أنينيل ألكسندروفنادوليا، مرجع سابق ، ص 54.

² دونالد كوتراوت، مرجع سابق، ص 158.

³ نفسه، ص 158.

⁴ عبد الرحيم بنحادة، مرجع سابق، ص 301.

⁵ أكمل الدين، مرجع سابق، ص 239.

يقومون على هذا القطاع ضروريا، لهذا نجد السلطان محمود الثاني ينشأ قلم الترجمة في عام 1921، الذي أضيفت إليه مهمة تكوين موظفين عاملين في وزارة الخارجية بعد تأسيسها¹.

إن الفترة التي تأسست فيها هذه المؤسسة وامتت مع بداية الثورة اليونانية سنة 1821، لهذا نعتقد أن السلطان وعى خطورة هذه الثورة على الجهاز الدبلوماسي والتأثيرات التي قد تلحق به، بالتالي عمد إلى إنشاءها. غير أن بعض المصادر تفيد باستغلال عدد مهم من اليونانيين والأرمن المسيحيين إلى جانب العثمانيين في قلم الترجمة²، وهذا ما لا ينفي حفاظ بعض اليونانيين على مناصبهم داخل الدولة العثمانية سيما الذين حظو بثقة الدولة.

إن وزارة الخارجية كجهاز حكومي مؤسساتي قد حافظ على استمراريته، حتى فترة السلطان عبد الحميد الثاني والذي عمل على استغلال هذا الجهاز من خلال وضعية محيطة حتمت استخدام الجهاز الدبلوماسي في مرحلة تاريخية فرضت تجاوز الحلول العسكرية، وفي هذا الإطار ومن بين التحركات الدبلوماسية التي انخرط فيها السلطان عبد الحميد عبر هذا الجهاز، هي تلك التي ارتبطت برغبته في خلق وحدة سياسية إسلامية، مروجاً خلالها لدور الخلافة الإسلامية³، ومستعينا بذلك بالسفراء الذين ظلوا خلال فترة حكمه تحت سلطته المباشرة، حيث أرسلهم إلى أماكن كثيرة مثل أفغانستان، وروسيا، وبخارى، وسمرقند، والكونغو، واليمن، وبلاد الحبشة، والهند، محاولاً بذلك خدمة مشروعه القائم على جمع العالم الإسلامي تحت سقف واحد، والمتمثل في الخلافة الإسلامية العثمانية⁴. غير أن مشروعه هذا لم يكتب له الاستمرار بعد عزله سنة 1908.

¹ أنينيل ألكسندروفنادوليا، مرجع سابق، ص 54.

² أنينيل ألكسندروفنادوليا، مرجع سابق، ص 55.

³ سيف الله أرباجي، السلطان عبد الحميد الثاني مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية

ترجمة: عبو سليمان، القاهرة: دار النيل، 2011، ص 72.

⁴ عمر فاروق يلماز، السلطان عبد الحميد الثاني المفترى عليه دراسة من خلال الوثائق،

ترجمة: طارق عبد الجليل، القاهرة: دار النيل، 2013، ص 234.

يمكن القول أن عبد الحميد عمل من خلال الدبلوماسية على تجنب الدخول في الحروب، فطيلة فترة حكمه لم يدخل إلا في حرب خاضعة مع اليونان¹، وبهذا فقد حافظ أكثر من سابقه على علاقات دبلوماسية مع الدول الأوروبية، فقد كان يهدف إلى إبعاد الدولة العثمانية عن أجواء الحروب، وهو ما فسّر سعيه الدائم نحو إقامة علاقات طيبة مع كل دولة بما يتفق مع ظروفها وقد ظهر ذلك في قوله: "لعل الله يرزقنا بالسلام والهدوء. لا أعتقد أن هناك بلدا يحتاج إلى السلام والهدوء مثلما يحتاج إليهما بلدنا"².

2. الدبلوماسية والعلاقات الخارجية العثمانية خلال القرن التاسع عشر

تميز القرن التاسع عشر في التاريخ العثماني بزيادة تقلص رقعة الإمبراطورية العثمانية، و يدل على ذلك ما أشار إليه دونالد كوتروات عندما اعتبر أن استمرارية الحروب الخارجية على جبهة البلقان، وخاصة مع روسيا أسهمت بشكل كبير في تقطيع أوصال الدولة العثمانية، حيث أن خمسين بالمئة من رعايا الدولة العثمانية كانوا يعيشون في البلقان لغاية منتصف القرن التاسع عشر ليتحولوا إلى عشرين بالمئة بداية القرن العشرين³.

إن المشاكل الخارجية التي كانت تعيشها الدولة العثمانية، تطلبت إرسال سفراء ودبلوماسيين محنكين للعواصم الأوروبية من أجل التباحث في حلها، ومن بين هؤلاء الذين اعتمد عليهم السلطان محمود الثاني نجد مصطفى رشد باشا الذي ترقى في شبابه في مجموعة من المناصب السياسية، ليصبح بعدها وزيرا للخارجية، كما كان سفيرا مهما للدولة العثمانية في لندن وفي باريس، كما عمل على حل مجموعة من المشاكل العالقة، ففي عام 1834، ذهب في سفارة إلى النمسا بهدف كسب دعم فيينا وتأييدها في مسألة مصر والجزائر⁴.

¹ أورخان محمد علي، السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده، إسطنبول: دار الوثائق، 2008، ص 173.

² سيف الله ارباجي، مرجع سابق، ص 56.

³ دونالد كوتروات، مرجع سابق، ص 114.

⁴ أنينيل ألكسرفنادوليا، مرجع سابق، ص 35.

فلقد ساهم السفير مصطفى رشيد بالقضاء على طموحات محمد علي باشا¹ وتمرداته، وذلك من خلال جهوده الدبلوماسية التي أسفرت على تأييد إنجلترا والنمسا وبروسيا وروسيا، وانعكس هذا التأييد على أرض الواقع، إذ حركت إنجلترا والنمسا جيوشهما للحد من تزايد نفوذ محمد علي في الأقاليم العربية².

لقد تمكن محمد علي باشا عبر ثورته من السيطرة على بعض الأقطار العربية، ليهدد بذلك الدولة العثمانية بإعلان الاستقلال التام عنها، لهذا جاء التدخل الأوروبي ليجرد محمد علي من جميع المكاسب التي حققها، وهذا التدخل يرجع أساسا إلى عدم قبول الدول الأوروبية بالسماح بقيام دولة جديدة قد تخل بموازين القوى³، فضلا على أهمية الجهود الدبلوماسية التي اعتمدتها الدولة العثمانية عبر سفيرها مصطفى رشيد.

إن الدور الذي لعبته الدبلوماسية العثمانية خلال فترة الصراع كان فعالا جدا، سيما تفضيل الجهاز الدبلوماسي العثماني بقيادة مصطفى باشا التعامل مع الإنجليز، الذين قدموا ضمانات كبيرة للسلطان والتي تجلت في اتخاذهم وضعية هجومية إلى جانب الجيش العثمانية، كما تمكنت هذه الدبلوماسية في خلق جو ودي بينهم وبين الروس، وضمهم لما يمكن أن نسميه حلف عثماني إنجليزي روسي ضد قوات محمد علي⁴.

إن هذا النموذج الذي قدمناه عن أهمية الدبلوماسية العثمانية في العلاقات الخارجية خلال القرن التاسع عشر، يعكس مدى تمكن هذا الجهاز الحكومي من المهمات التي كلف بها، وهذا لا يعني بالضرورة تمكنه من إيجاد مداخل دبلوماسية في كل الحالات، وهذا ما تجسده الحالة اليونانية خاصة في سنة 1844 عندما تم قطع كل العلاقات الدبلوماسية مع اليونان.

¹ محمد علي كان والي على مصر وقبلها كان جنديا في صفوف الجيش الانكشاري، جاء في الحملة الفرنسية إلى مصر، عينه الباب العالي واليا سنة 1805، توفي بالإسكندرية سنة 1849. (أنظر: عبد الرحمن الرفاعي، عصر محمد علي، القاهرة: دار المعارف، 1989، ص 27-28).

² أنينيل ألكسندروفنادوليا، مرجع سابق، ص 7.

³ دونالد كواترات، مرجع سابق، ص 120.

⁴ أنينيل ألكسندروفنادوليا، مرجع سابق، 125.

نتيجة تزايد النزعة الاستقلالية ودعم فرنسا لليونان¹، وكذلك الحالة الجزائرية التي راهن فيها العثمانيون على اصطدام مصالح الدولة الأوروبية من أجل تحين الفرصة على إجبار فرنسا على إعادة الأراضي المحتلة، لكن هذه الفرصة كما هو معروف لم تحن، وظلت الجزائر في حوزة فرنسا. ليتم إسقاطها نهائيا من قائمة الولايات العثمانية سنة 1848².

خاتمة:

في الأخير ننتهي إلى أن الدبلوماسية العثمانية كانت فاعلة حتى قبل تأسيس نظارة الأمور الخارجية، إذ أن إرهاباتها الحديثة برزت مع السلطان سليم الثالث، الذي عمل بذلك على استغلال التواجد العثماني في العواصم الأوروبية الكبرى من أجل ضمان تواصل مباشر وتأسيس أحلاف قادرة على مساندته ضد تزايد المد القومي الداخلي، بموازاة مع تزايد الأطماع الأوروبية في أملاك الدولة، ويمكن القول من خلال تتبع مسار الدبلوماسية العثمانية أنها استطاعت أن تمدد من عمر الدولة كما أنها نجحت في كسب ود بعض الدول الأوروبية وضمها إلى حلفائها خاصة إنجلترا ، وبالتالي فقط أدت الدبلوماسية العثمانية دورا مهما في الحفاظ على وحدة الدولة ومساعدتها في تتبع مسار واضح للإصلاحات التي هيئتها لمواكبة الظروف الاقتصادية والسياسية الجديدة ، غير أن نتائجها لم تكن دائما لصالح الدولة العثمانية إذ سجلت بعض كبواتها خلال القرن التاسع عشر، وهذا ما أسهم بشكل كبير في تردي الأوضاع خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

¹ نفسه، 125.

² أنينيل ألكسندروفنادوليا، مرجع سابق ، ص 144.

قائمة المراجع:

1. رباجي، سيف الله، السلطان عبد الحميد الثاني مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية ترجمة: عبير سليمان، لقاهرة: دار النيل، 2011.
2. أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة: صالح سعداوي، القاهرة: مكتبة الشروق، 2010..
3. أورخان، محمد علي، السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده، إسطنبول: دار الوثائق، 2008.
4. البحراوي، محمد عبد اللطيف، حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني، القاهرة: دار التراث، 1996.
5. بنحادة، عبد الرحيم، العثمانيون المؤسسات والاقتصاد والثقافة، الدار البيضاء: اتصالات سبو، 2008.
- روبير مونتان، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: بشير السباعي، القاهرة: دار الفكر، الجزء الثاني، 1992.
6. عبد الرحمن الرفاعي، عصر محمد علي، القاهرة: دار المعارف، 1989.
7. فاروقي، ثريا، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، ترجمة حاتم الطحاوي، بيروت: دار المدار الإسلامي، 2008.
8. فتادولينا، أنيل ألكسندر، الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية في ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر، ترجمة: أنور محمد إبراهيم، مصر: المجلس الأعلى للثقافة، 1999.
9. كواترت، دونالد، الدولة العثمانية 1700-1922، تعريب: أيمن الأرماني، الرياض: مكتبة العبيكان، 2004.
10. مونتان، روبر، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: بشير السباعي، القاهرة: دار الفكر، الجزء الثاني، 1992.

11. نبذة عن وزارة خارجية الجمهورية التركية"، (آخر تحديث: 2018-05-09).
<http://www.mfa.gov.tr/نبذة-عن-وزارة-خارجية-الجمهورية-التركية.ar.mfa>

يلماز، عمر فاروق، السلطان عبد الحميد الثاني المفترى عليه دراسة من خلال الوثائق،
ترجمة: طارق عبد الجليل، القاهرة: دار النيل، 2013.